اسلوب طريف فى التأليف

— تخريج النشء في الادب العربي —

١

روى مؤلف « معجم الادباء » ان الصاحب بن عباد قال : « لو ادركت عبدالرحمن بن عيسى الهمذانى مصنف كتاب « الالفاظ الكتابية » لامرت بقطع يده . فسئل عن السبب ، فقال : جمع شذور العربية الجزلة في اوراق يسيرة فاضاعها فى افواه صبيان المكاتب ، ورفع عن المتأدبين تعب الدروس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة » اه .

هذه حكاية وزير عربي فى القرن العاشر متشبع روحه بالارستقراطية في الطبقات ويريد ان يطغى بارستقراطية على اللغة والادب أيضاً . الا انها تدل على فرط اعجاب الصاحب بكتاب الهمذانى . والصاحب من يعلم رجال الأدب : ذو منزلة علية بين حملة الاقلام فى دولة العرب ومذاك ، فهذه الرواية عن لسانه شهادة غالية فى طرافة تأليف « الالفاظ » .

تذكرت قول الصاحب الوزير لما وقع في يدي كتاب « الروائع » المتسلسل الحلقات الذي ألفه في هذه الايام أديب جليل هو فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية فى كلية القديس يوسف فى بيروت . وحاول فيه اتحاف النشء العربى الحديث بدروس مبتكرة فى الادب والنقد

حدثيني عن ظلام القبر يانفسي الكئيبه
هل به عن لحر نفسه أمست سجينه

« ابن الشعب »

لنفائس الآثار العربية ، فلم اشته قطع يد المؤلف شأن صاحبنا ! بل تمنيت تقبيل تلك اليد المباركة .

فلا يخفى على أحد ان مناهج الدراسة اليوم مزدحمة بمختلف العلوم والآداب واللغات والفنون ، مما يتحتم على طالب العلم فى القرن العشرين أن يحذقها، لينفح شهادة تعليمية تعينه على العيش في ميدان الحياة. وقد ضاعت فى هذا الازدحام اعلاق اللغة العربية وآدابها التي خلف فيها السلف الصالح كنوزاً مكتنزة . الا ان تلك الكنوز وعرة الملتمس ، عزيزة المنال ، فيها المخطوط النادر الخفي، وفيها المطبوع طبعاً سمجاً تشمئز منه نفس الدارس الحديث في الكتب الشهية، وفيها المغلوط المشوه . ومعظم الامهات النافعات المغذيات من الاسفار عظيمة التجاليد، عديدة الاجزاء ، مما يصعب حمله ويتعذر اقتناؤه الا ببذل بذز الاموال .

وخلاصة القول: طالما وجدنا طلاب المدارس من نشئنا التواق الى دراسة الادب العربي ، منكسفي النفوس ، فاتري الهمم ، لليأس من نيل مبتغاهم ، حائرين لا يدرون أي السبل يسلكون فيكونون هم الفائزين .

شعر بهذه الحاجة الاستاذ فؤاد البستاني ، فانبرى للعمل وشحذ غرار همة شماء واوقد زناد قريحة وقادة ، وطفق يدرس « فصحاء الادب العربي » وهم من يسمون في تواريخ الآداب الاوربية « الكلاسيك » من شعراء وادباء وكتبة ومؤلفين ، وينشرهم في سلسلة شائقة من الرسائل بعنوان « الروائع »

وقد صدر من السلسلة حلقات عديدة بين يدي الآن تسع منها :

— ٢ —

يفتتح المؤلف سلسلة أبحاثه بالامام علي بن ابي طالب (ع) الذي يراه — أول مفكري المسلمين — وكتابه « نهج البلاغة » فيبحث فى « الرجل » قبل

موت النبي (صلعم) ثم بعد موته ، ويزعم ان سوء طالع الامام بدأ بموت النبي. وينتقل الى خلافته ومقتله ويلقي نظرة على حياته العائلية وصفاته ويقول في هذا الصدد « ان التاريخ لا يفيدنا شيئاً يذكر عن حياة ابن ابي طالب العائلية وهل كان سعيداً مع نسائه . وهو أمر قد نشك فيه اذا ما اطلعنا على اقواله في المرأة وذمه اياها » . وعند ذكره صفات علي يطري غيرته الشديدة فى خلافته على مصلحة المسلمين وشجاعته النادرة فى غزواته وحروبه ولكنه يرى ان الامام « لم يظهر مقدره سياسية وحسن ضبط فى الادارة . وهذا ما احبط مسعاه» .

وينتقل الى « رجل الادب » وآثاره فيبين ان « على آثار على ستر كثيف من الشك والوهم يصعب علينا خرقه » ويرى ان الديوان المنسوب اليه منتحل وهو من نظم ادباء مختلفين في أوقات مختلفة . ويورد اسماء آثاره النثرية ، وبعد ذلك يعالج تحليل شخصية على الادبية فيرى له شخصية بارزة في الآداب العربية وان له تأثيراً شديداً فى مذاهب المتأدبين. وان شخصيته الأدبية قائمة على قوى أدبية ثلاث ، اتحدت في الرجل فحملته الى أرقى درجة من البلاغة ،وهي: الشعور والمخيلة والعقل ويشرع في درس نهج البلاغة فيبحث في من جمعه وينظر فى صحة نسبته ويورد حجج الذين يشكون فى صحة نسبة النهج الى الامام ويختمها بانه ليس في اكثر هذه الاسباب ما يقف عثرة في سبيل صحة نسبة الكتاب الى علي ، ويعود فيقول : « ولا يؤخذ من هذا البحث ان « نهج البلاغة » ثابت كله لعلي بن ابي طالب حرفا حرفا . بل يمكن ان يكون بعض من رواه وتناقله غيروا وبدلوا فى جمله وخطبه سهواً ، وهو أمر محتمل يحصل لكل أثر أدبي تداولته الالسن قبل ان تدونه الاقلام» ويذكر بعده شرح النهج وطبعاته ويختم كلامه بايراد ما آخذ بحثه .

ويعجبنا من المؤلف التزامه جادة الانصاف والاحتراس في احكامه فهو يرد الاقوال عازياً كل قول الى صاحبه ، ويقف في بعض المواطن موقفاً لا صبغة له نظير وقفته عند ذكر كتاب « الجفر والجامعة » المنسوب الى الامام فقد قال فيه : « اما صحة نسبة هذا الكتاب فلا رأي لنا فيها .»

واورد الاستاذ البستاني في القسم الثاني من الكتاب مختارات من حكم الامام وآرائه واجوبته على بعض الاسئلة ورسائله ووصاياه وخطبه وأدعيته وبها ختم هذا الجزء .

— ٣ —

وخص المؤلف الجزء الثاني بـ« الشعر الجاهلي» فبحث بحثاً أدبياً انتقادياً فى نشأة الشعر الجاهلي وفنونه وصفاته وتعرض لذكر الاسواق الادبية عند العرب الجاهلية وطريقة النظم وأصله . وبعد ذلك عرض لصحة نسبة الشعر الجاهلي ونظرية الدكتور طه حسين التي أحدثت ضجة في عالم الادب العربي فى العام الاسبق بمناسبة نشره كتابه فى « الشعر الجاهلي » و بعد ان يلخص نظرية الدكتور يقول : « بالاختصار نقول ان انكار الدكتور طه حسين لشعر فلان أو لشعر فلان أو للشعر الجاهلي باجماله كثير الجسارة بين التطرف لايسكن الى الثابت من البراهين العقلية ولا النقلية . اما مبدؤه فحسن يجمل بنا ان نتخذه قاعدة في درس الآداب فنشك عند اول فرصة الشك، ونبحث في موضوعه ، دون ان ننفي بطريقة عامة وحكم بات كل الشعر الجاهلي » .

و يقبل بعده على فنون الشعر الجاهلي فينظر الى الشعر القصصي أو الملاحم فيتعجب من ان العرب لم يطرقوا قديماً هذا النوع من الشعر . و يعزو هو سبب فقدان شعر الملاحم عندهم الى تعدد عباداتهم وكثرة صور صلواتهم مما حال بينهم وبين الاتفاق على ديانة واحدة يبنون عليها آلهتهم وخوارقهم.

و يعود فيدعى ان بعض القصائد الجاهلية تشبه بانفرادها قطعاً من الملاحم نظير عمرو بن كلثوم والحرث بن حلزة وعنترة فى معلقاتهم والاعشى .

ويواصل البحث في الشعر الغنائى وملحقاته فيستعرض الفخر والغزل والرثاء والزهد والوصف . ثم يميل الى الشعر الحكمي الذي لم يفت شاعر جاهلي واحد ، ويعرج على الشعر التمثيلي .

ويأخذ فى فصل آخر في تحليل صفات الشعر الجاهلي فيثبت ان الشاعر الجاهلي خطيب قبل كل شيء فى شعره جميع صفات الخطابة . و يلمس الطبعية فى اشعارهم ، ذلك التنسيق الذي يجيء عفواً . و يعجب بدقة الوصف وتمامه عندهم وتلك الميزة الفريدة ميزة التلميح والاكتفاء وقلة المبالغة وايجازهم المحكم . وقبل ان يلخص مزايا العهد الاول من الشعر العربي وهي : البساطة والبداهة مع قوة التأثير وانمام اقسام الوصف وطبيعة التشبيه ومتانة التعبير يأخذ على اولئك الشعراء الخناذيذ بذاءة الفاظهم كامرئ القيس وطرفة وغيرهما. ويختم دراسته للشعر الجاهلي بتبيان تأثير الشاعر الجاهلي فى قومه والاقوام الاخرى وهو اشبه بالصحافى فى هذا العصر . وقد تدهش كل الدهش عندما يطالعك المؤلف بعد ان قدم اليك فصوله التحليلية الموجزة فى موضوع جد خطير فى ٤١ صفحة صغيرة فقط بما آخذ البحث فاذا هي ٢٥ كتاباً عربياً غير الدواوين والمجموعات المتداولة و ١١ مؤلفاً افرنجياً مع ذكر مكان الطبع والطبعات وهي صفحة تحقيق تفيد المطالعين غاية الافادة .

وقد قسم الجزء الاول الى قسمين درس في القسم الاول الشعر الجاهلي عامة وخص القسم الثاني بدراسة وتحليل واحد من الشعراء الجاهليين المشهورين الشنفري من رجال القرن السادس، فصور لك حياته وحلل اسمه ونشأته وعدوه وطريقة معيشته وقتله. ونظر الى عصره وما تركه من الآثار . وصار يدقق في

« لامية العرب » التي اشتهر بها الشنفري ومن شرحها وطبعها وصحة نسبتها الى قائلها والدعوى القائلة بان ناظمها خلف الاحمر كما قال المستشرق كليمان هوار ولا يجزم فى صحة شيء ومن هذا انما يجزم فى جاهلية شعر « لامية العرب » و يأخذ بعده في تقسيم هذه اللامية حسب معانيهـــا . ويحكم على قيمة الشنفري اخيرا ويراه مغالياً جداً في تمثيل الحقيقة على حد تعبير الغربيين بـ «الريالست» كما ان شخصيته البارزة هى البداوة . ويتم دراسة الرجل بايراده لامية العرب وشرحه لها .

ولسنا بحاجة هنا الى الاشارة الى نفاسة الطبع وجودته فهو من نتاج المطبعة اليسوعية في بيروت فحسب .

— ٤ —

كان الاستاذ البستاني لم يرو غليله من دراسة الشعر الجاهلي في الاكتفاء بالشنفرى فيعود في الجزء الثالث من روائعه الى دراسة شعر رجل اشتهر شهرة عظيمة في الادب والتاريخ الجاهليين نريد به المهلهل الذى يعرفه العامة والدهماء بصورة قصصية خرافية غير الصورة التي يعرفه بها الادباء الاثبات . فيشرع فى دراسة الرجل قبل مقتل كليب ويحلله كشاعر و يعتمد على « كشف الظنون » فيزعم انه اول شاعر جمع له ديوان و يقف — بايعاز من الدكتور طه حسين — لينظر فى صحة نسبة شعر المهلهل الذي يرى فيه الدكتور هلهلة واسفافا في النظم ورقة فى العواطف وهذا تناقض . فلا يشايع مؤلف « فى الشعر الجاهلي » في رأيه بل يعلل التناقض فى طبيعة المهلهل و بيئته . ويزن قيمة شعره . وبعد أن يسفه « قصة الزير » ويزيف « ديوان الزير » يذكر ما آخذ بحثه والكثيرة وينصرف الى ايراد مختارات من شعر المهلهل .

ولا يهمل الكاتب ان يعقد فصلا انتقاديا تاريخيا فى « حرب البسوس » و يشير الى

انه يورد ذلك للتفكهة واللذة ليس الا كأنه غير واثق من صحة مايروي ، وقد ذكر اعظم مأخذين له : كتاب الاغاني وتاريخ برسفال .

— ٥ —

لم يلتزم المؤلف فى سلسلة كتبه سياق الموضوع لاننا رأيناه يفتح الكتاب فى جزئه الاول ببحث الامام علي وكتاب الخطير « نهج البلاغة » وينثنى فى الجزء الثانى الى الشعر الجاهلي فيدرس المهلهل وحرب البسوس .

وهاهو يخص الجزء الرابع بابن بطوطة الرحالة العربي المشهور ولما كانت اجزاء كتبه صغيرة فلم يتمكن من دراسة ابن بطوطة ورحلته الموسومه بـ « تحفة النظار فى غرائب الامصار ، وعجائب الاسفار » الا في ثلاثة اجزاء الرابع فالخامس فالسادس . افتتح البحث بفصل ممتع عن رحالة العرب قبل ابن بطوطة فذكر ابن خرداذبة واليعقوبى وقدامة والبلخى وابن حوقل وكلهم من رجال القرن العاشر وكتاب زيد السيرافي . ورحلات ياقوت الرومى وكتابه الشهير « معجم البلدان » والشاعر ابو دلف ابن مهلهل وكتابه « عجائب البلدان » والمسعودي وكتابه اللذيذ « مروج الذهب » وأبا الريحان البيروني الفيلسوف الرياضي الفلكى مؤلف « تاريخ الهند » وتوسع فى ذكر ابن جبير صاحب الرحلة المشهورة وابن سعيد المغربي مؤلف كتاب « المغرب »

ثم يتفرغ لدراسة حياة ابن بطوطة وأثره فيدرس الرجل، نشأته وشبابه فى طنجة ثم اسفاره وبعد اسفاره واخلاقه وصفاته ويسهب فى تدقيق رحلاته والبلاد التي جاب فيها ويصف صدقه وامانته ويستعين بابن خلدون فى وصف صدق ابن بطوطة ودقته كما يورد تأمين علماء المشرقيات على تحقيقاته وما البدع وزنه لقيمة هذا الرحالة الشهير بالكلمات الموجزة الآتية : « لايعادل ابن بطوطة جوابي الآف ودارسي المجاهل من علماء عصرنا ، فليس هو عالماً ولا مفكرا

ان هو الا رحالة متسع العقل ، راغب في الجديد الغريب ، يصور مايراه بجملة مقبولة واعجاب ساذج وملاحظة فكهة لاتخلو من دقة نظر » .

ويلم فى الرحلة ويفلي كتابها وانشاءها فيلوح له ان كل تفنن فيها منمق من انشاء ابن جزي الذي املى عليه ابن بطوطة رحلته. لان فيها مواطن تكاد تجاور الانشاء المنحط . ويدقق في نسخها وطبعاتها وترجماتها الى اللغات الاوربية وينظر في تقسيمها وقيمتها وهنا يورد قول العالم سيتزن الرحالة الشهير فيها وفى اكبار ابن بطوطة ويأخذ في تلخيص الرحلة الاولى في هذا الجزء فلا يتم هذه الرحلة حتى فى الجزء الثاني كله الذي هو منتخبات من الرحلة بل يستوفى حصة وافية من الجزء الثالث الذي يلخص فيه في صفحات قليلة الرحلتين الثانية والثالثة وهكذا ينتهي بحث ابن بطوطة وسفر رحلته .

— ٦ —

يعود الاستاذ صاحب الروائع فى الجزء السابع من كتابه الى الشعر الجاهلي فيدرس امرأ القيس . واول ما يعالجه اجداد امرئ القيس ملوك كندة ووائل ومصير والده . ثم يعرض لحياته قبل مقتل ابيه وبعده واستعداده لأخذ الثار وطلب المنذر له وتنقله بين القبائل ووجوده عند السموأل وعند قيصر وفوزه ورجوعه ووفاته بالجدري واديبنا يعلل اسطورة « الحلة المسمومة » بسبب بثور مرض الجدري التى ظهرت عليه اذ كان في انقرة .

ولم يفت المؤلف ان يتعرض لدين امرئ القيس فيذكر رأي الاب انستاس ماري الكرملي صاحب مجلة لغة العرب ان امرأ القيس كان على دين المزدكية المتسرب عن الفرس ولكنه يشايع الاب لويس شيخو اليسوعى ويعطيه القول الفصل زاعما ان الأب المرحوم قتل المسألة درساً فاستخلص ان امرأ القيس كان من احدى البدع النصرانية وان لم يكن يمارس هذه الديانة

مع اننا نميل الى تأييد الاب انستاس الكرملي في مزدكية أمير الشعر الجاهلي.

ويبحث بعد ذلك آثار الشاعر العظيم وديوانه وطبعاته وشرحه والمعلقة وسبب نظمها حب الشاعر لابنة عمه عنيزة وينقد قيمة شعر « الملك الضليل » فيخرج من نقده بان امرأ القيس كان شاعراً وشاعراً اميراً ! ويذكر مآخذ البحث العديدة من عربية وافرنجية. ويورد طائفة من منتخبات شعر الرجل مع شرحها.

— ٧ —

أرصد الاستاذ فؤاد البستـــانى الجزئين الثامن والتاسع من كتابه « الروائع » باديب كبير فتن لبه وأسر قلبه ألا وهو ابن عبد ربه صاحب « العقد الفريد » فتفرغ في الجزء الاول لتحليل شخصية هذا الاديب الاندلسي الجليل وايراد سيرته ووزن قيمته الادبية وهو يعده فى مقدمة العاملين لتأسيس المدنية العربية في الفرع الاسباني الجميل . فيبحث اسمه ونشأته واعماله ووفاته . ويصف اخلاقه وصفاته وينتقد شعره وقصيدته القصصية التي هي الاولى من نوعها في الشعر العربى في ذكر غزوات الامير عبدالرحمن الاندلسي .

ويأتي الى اثره الخالد « العقد الفريد » فيعرفه ويذكر تقسيمه وينظر في طبعاته وترجمة بعض اقسامه الى اللغات الاوربية ويعاير قيمته فاذا هو حافل بالمعلومات الادبية ويرى انه لولا الاغانى الكبير لكان افضل سفر من نوعه.

ثم يعقد فصلا في شخصية ابن عبدربه الادبية . فيثبت ان ابن عبدربه أديب باوسع معنى الكلمة — على هذا التعبير — ويوازن بينه وبين الجاحظ والاصبهانى صاحب الاغانى الكبير فيرى ان ابن عبدربه يقصر عن ايجاز الاصبهانى ولكنه يفوقه وضوحا . وهو ابعد من ان يدرك فكاهة « الجاحظ » واسترسال انشائه ولكنه يسمو عليه بترتيب افكاره وحسن انتقالاته .

كلمة فى الصهيونية

قد يستغرب البعض هـذا العنوان لهذا البحث ويذهب الى ان ليس من اختصاص هذه المجلة ان تتطرق اليه وهى أدبية غير سياسية .

ولكن نحن نقول ان مجال الادب والاجتماع لمثل هذه البحوث اوسع ويستطيع المرء ان يطرقه الى الحد الذي يشاء على ان لايدس بين الاسطر قنابل ومفرقعات تلتهم الرطب والجاف .

* * *

وبعد نقول يزعم بعض « اليهود » ان الصهيونية فكرة دينية ، خيرية يسعى لتحقيقها الاوربيون حباً بالشعب المبعثر لا تجمعه جامعة ولا يضمه صعيد . ولكن نحن نشفق على هذا الفريق ولا نحسبه الا مخدوعاً يوهم نفسه و يقذف

فيكون والحالة هذه اوفر من زميليه علماً وتعقلاً وهما اكثر منه تفنناً وأدباً . وأنه أديب ولكنه كثير العلم ولولا هذه الكثرة لكان أديبا وكاتبا وشاعراً . وغب ان يورد مآخذ بحثه . يشرع في تلخيص العقد الفريد فيكمل تلخيصه كله في هذا الجزء والجزء الذى يليه .

ولا أخالني بعد الذي بسطته بحاجة الى أن اغري الناس بمطالعة هـذه السلسلة الفريدة في تاريخ الادب العربي ونقده ولا أن اوجه نظر الشباب الى كتاب يتناولونه في يومهم وهم لا يعرفون شيئا عن أدبنا العربي المبعثر تاريخه المطموسة آثاره ، فاذا هم في غدهم أعلام فى هذا الباب يجمعون في اذهانهم الزبدة الصالحة ، فما يقتضي ان يثقف فيه النشء العربي في القرن العشرين .

رفائيل بطي